الشعب العربي يطلب تصحيح التجربة لا الغاء الوحدة

منذ أن تأسست[1] الجامعة العربية عام ١٩٤٥ كانت مهمتها مزدوجة: محافظة على التجزئة الراهنة.. ومحافظة على الأوضاع الداخلية الرجعية، تحوّطاً وإحباطاً للتطور التاريخي، الذي كان ينذر بظهور تيار شعبي جارف نحو الوحدة العربية ونحو المجتمع الاشتراكي. منذ ذلك الحين كانت الانفصالية والرجعية توأمين متحالفين، وكان شعار التمويه: العمل للوحدة الشاملة. وقد أريد للجامعة ان تقوم منذ تأسيسها على تناقض أساسي يشلها ويمنعها من تحقيق أي عمل إيجابي لصالح الأمة العربية، بينما يسمح لها هذا التناقض ـ ما دام مستتراً غير مكشوف ـ أن تضع العراقيل الجمة في طريق نضال الشعب العربي وتقدمه، وأن تقوم في مناسبات خطيرة حاسمة بدور التآمر والتستر على الخيانة كالدور الذي قامت به في نكبة فلسطين. هذا التناقض يكمن في ادعاء العمل للوحدة العربية من جهة، وفي الانطلاق لهذا العمل من احترام وتكريس الكيانات القطرية، واحترام وتكريس الأنظمة الداخلية الرجعية من جهة اخرى.

لقد كانت الجامعة تقوم على أساس احترام استقلال كل دولة عربية، ليس تجاه

---

(١) نشر في جريدة «البعث» في ١٥ ايلول ١٩٦٢.

الـدول الأجنبيـة والاستعمـار، بل استقـلالهـا عن الدول العربية الاخرى، وتكريس الكيـانـات الاقليميـة باسم مبـدأ «الاستقـلال» بتحـريف معنـاه، من معنى التحـرر القومي، الى معنى الانفصال القطري.

كذلك كانت تقوم على أساس عدم تدخل اية دولة عربية في الشؤون الداخلية للدول العربية الأخرى. أي منع الدول التي استطاع النضال الشعبي ان يطورها نسبياً، سواء من حيث التحرر من القيود الاستعمارية، أو من حيث التحرر الداخلي السياسي والاجتماعي، من أن تنبه الشعب العربي إلى أخطار ارتباطات بعض حكوماته بالاستعمار، وأخطار تخلفها السياسي والاجتماعي على قضية هذا الشعب في كل مكان، وبتعبير آخر كانت الجامعة ترفع شعار الوحدة العربية لتتمكن من ضرب وحدة النضال العربي، فلم تكن بذلك سوى خدعة اخترعتها الحكومات العربية الممثلة لطبقة اجتماعية رجعية ذات مصالح تجعلها معادية للشعب متواطئة مع الاستعمار.

وقد بلغ هذا التناقض ذروته في الدور الذي لعبته الجامعة في حرب فلسطين، فتحقق أجمـاع الحكـومات العربية على شيئين سلبيين: الأول، منع شعب فلسطين من النضال والمشاركة في القتال، والثاني، تغطية الهزيمة والخيانة، وتضييع المسؤولية برفعها عن الحكومات العربية، تفادياً لثورة الشعب عليها، وتحمل الجامعة لتلك المسؤولية لأن الشعب لايستطيع محاسبتها. فقد أدخلت الحكومات جيوشها الى فلسطين لخداع الشعب العربي، ولتبرير منع شعب فلسطين من القتال، وتبرير الهزيمة فيما بعد، لأنها كانت تعرف أن هذه الجيوش لايمكن ان تنتصر ـ طالما لم يكن ممكناً توحيدها الحقيقي بقيادة مخلصة سليمة وبقيَ كل منها يعمل على انفراد وبعضها حسب توجيهات الدول الاستعمارية.

فمن النكبـة والهـزيمـة في فلسطين لقيت الجـامعـة نهـايتها كفكرة، واستمرت كواقـع لم يعـد له أي أثـر في الأحداث، بينما ولدت من هذه النكبة ذاتها فكرة عملية للوحـدة بمضمـون اشتـراكي ديمقـراطي، وتفكيـر جديد يتمرد على منطق الكيانات القطرية ويجرمه كما يجرم الوضع الاجتماعي الرجعي كأكبر معطل لامكانيات

الشعب. وتركز في أذهان الجماهير العربية انه لا بد للوحدة، كيما تتحقق، من ان تقفز من فوق الجامعة لتتجاوز منطق التناقض والاحتيال الذي أدى الى ضياع فلسطين. وبدأ السعي للتوحيد بين دول متقاربة في النضال والاهداف.

ومنذ عام ١٩٥٥ بدأ التقارب بين مصر وسوريا على أساس التماثل في السياسة الخارجية (تحرر ومقاومة للأحلاف العسكرية، حياد إيجابي) والسياسة العربية، والسياسة الاجتماعية مثل الاصلاح الزراعي وغيره، وفي عام ١٩٥٦ كان إجماع الشعب العربي في جميع أقطاره على تأييد مصر في معركة تأميم القناة أروع مثال على التفكير الجديد المناقض والمصحح للتفكير الذي قامت عليه الجامعة. كان انفراد حكومة عربية في اتخاذ موقف قومي جريء أقوى من دول الجامعة كلها ومن إجماعها. وكانت سوريا تعرف إذ ذاك مداً شعبياً تحررياً فوقفت حكوماتها الى جانب مصر وتحققت وحدة القطرين عام ١٩٥٨ نتيجة هذا التقارب.

فالانفراد الثوري نال إجماع الشعب العربي، أما الاجماع الرجعي فكان متهماً ومجرماً في نظر الشعب. ووحدة سوريا ومصر لم تتم في الجامعة، ولا بمعرفتها ومنطقها بل كانت هي أيضاً انفراداً وتمرداً على المنطق القديم. وظلت كذلك في نظر الشعب العربي الى ان انحرفت التجربة وظهر ان المنطق الاقليمي كان هو السائد في حكم الوحدة بدلا من المنطق الوحدوي، ومنطق الحكم الفردي بدلاً من منطق الحكم الشعبي فانتكست الوحدة بذلك وانهارت.

وإذا كانت الوحدة قد أفادت من فشل الجامعة، فهل أفادت الجامعة من فشل تلك التجربة للوحدة؟ هل استطاعت الجامعة أو تستطيع ان تعزز وجودها ونفوذها نتيجة فشل تلك المحاولة الوحدوية المتمردة على الكيانات الاقليمية وعلى الأنظمة الرجعية وإجماع الدول العربية؟ لقد كادت الجامعة أن تنهار نتيجة انهيار تلك التجربة للوحدة، وهذا يعني أن الرجوع الى الوراء لم يعد ممكناً، ففشل تجربة الوحدة لا يداوى بالمرض نفسه الذي كان سبب الفشل، اي بالعقلية الاقليمية التي تجاوزها الزمن، بل بخطوة جديدة الى الأمام في طريق الوحدة السليمة. لم يعد لمنطق الجامعة إمكانية البقاء والحياة في المرحلة التي وصل اليها الوعي عند

الجماهير العربية، فإذا بقيت الجامعة فإما أن تتطور وتغير مبادئها، وإما أن تقبل بدور رمزي بسيط كمجرد رابطة ومكان للالتقاء. .

بعد تجربة الوحدة لم يعد المنطق القطري قادراً أن يعرض نفسه على الرأي العام (في الجامعة) بل تَرتَّبَ عليه أن ينحصر في حدود القطر، وعند الطبقة الرجعية المتآمرة والشعوبية الحاقدة، فالخداع لم يعد ممكناً لأن الوعي الشعبي قد نضج وخاصة بتجربة الوحدة وانتكاسها. التآمر بشكل علني وعلى مسرح الجامعة العربية أصبح متعذراً في حين أن التآمر على نطاق القطر بالارهاب والتنكيل يمكن أن يحدث، فاذا ظن البعض أن بإمكان الجامعة ان تلعب هذا الدور فظنهم خاطىء. فالتآمر على الوحدة هو بالدرجة الأولى تآمر على الاشتراكية، والعودة الى المنطق القطري هو بالدرجة الأولى عودة الى المنطق الرجعي الرأسمالي، وقد تأسست الجامعة بقصد التآمر على الوحدة والاشتراكية معاً. ويراد لها اليوم أن تكون البديل للوحدة، وأن تجسد فشلها وفشل مضمونها الاشتراكي وأن تلعب نفس الدور الذي قامت لتلعبه: خداع العمل الوحدوي القائم على احترام التجزئة واحترام الأنظمة الرجعية. ولكن ذلك ضرب من المحال، فأن تنتكس الوحدة في قطر، وأن ينتكس مضمونها الاشتراكي، هو شيء مختلف جداً عن تكريس هذه الردة في الجامعة، اذ أن الجامعة تحاول أن تعطي لما يقرر فيها من مواقف وتوجيهات صفة قومية، ولا يجرؤ أحد اليوم على تحدي الرأي العام العربي بمثل هذا الشكل العلني الاجماعي وإلا كان أعضاء الجامعة يسعون الى إنهائها ليعود كل منهم الى تنفيذ المؤامرة بشكل مستور في نطاق القطر.

لقد جاءت تجربة الوحدة لتبرهن رغم كل ما فيها من نواقص وثغرات على حقيقتين خطيرتين بالنسبة لقضية الشعب العربي. . أولها أن الوحدة ممكنة وقابلة للتحقيق، ولذلك لن يهدأ للشعب العربي بال بعد اليوم قبل أن يحقق خطوة وحدوية شعبية. والثانية ان الوحدة ارتبطت بحياة الجماهير ونضالها اليومي من أجل معيشتها ولن تستطيع قوة ان تفصل بين نضال الفلاحين والعمال من أجل الوحدة، وبين نضالهم من أجل الاشتراكية والحرية.

ولقـد أتت انتكـاسـة تجربة الوحدة لتؤكد ان منطق الوحدة هو المنطق الصحيح وبـالتـالي إذا كانت هنـاك أمـانٍ وأوهـام لدى الـرجعيـة في أن تستعمل انتكاسة تلك التجـربـة للوحـدة بالـرجوع لمنطق الكيانات والمحافظة على الأوضاع الرجعية فهذا وهم وتضليـل لأن الـوعي الشعبي أقـوى من أن تصمد أمامه مثل هذه المحاولات . . الشعب العربي يطلب تصحيح التجربة لا إلغاء الوحدة .

١٥ أيلول ١٩٦٢